البيت

ليس فندقا ولا مطعما

يحسن الانجليزحين يفصلون فى اللغة بين المنزل و بين البيت . فالأول House أى البناء الذى يضم الأسرة والثانى Home أى الأسرة التى يجمعها الحب و يربطها الدم . والواقع أن لنا فى اللفظين العربيين مثل هذا المعنى . فان بيت الرجل أسرته وهو غير المنزل الذى هو مسكنه . ومن الحسن أن نؤكد هذا المعنى لأن له مغزى اجتماعيا مفيدا .

و يزيد الانجليز على هذا المعنى معنى آخر وهم يشتركون فى ذلك مع كثير من الأمم الأوربية. فان للبيت عندهم اسما آخر هو لفظة Hearth أى الموقد الذى يجتمع حوله أعضاء الأسرة للاصطلاء. و يقابل هذه الكلمة عند الفرنسيين كلمة Foyer ولما كان البرد فى معظم الأقطار الأوربية يزيد على ثمانية أشهر فى العام فان الموقد يجمع الأسرة نحو ثلثى السنة أو أكثر. وهم فى هذا الاجتماع يتحدثون و يتسامرون. ومن طبيعة البرد أن يجمع و يضم و يكن، فى حين أن الحر أو الدفء يشتت و يجعل الافراد يجنحون الى العزلة و يقصدون الى الخلاء. ولعل لتوثق الروابط بين أعضاء الأسرة فى الغرب أصلا فى هذا الموقد الذى لا تخلو منه غرفة فى منزل أوربى . فان النار تجذب بلمعتها العين ، والدفء يريح الأعضاء و يرخى العضلات . فما هو إلا أن يحضر الأب والأبناء حتى يتكأكأوا أمام الموقد فيثار الحديث وتتصل الأرواح فهذا يبث شكواه وذاك يقص اختباره وآخر يشرح إحدى الحوادث . ومن هنا صار الموقد يعنى البيت .

وليس فى مقدورنا أن نحيل جونا الى البرد الذى يعانيه الأوربيون . و إن كان لنا فى الأشهر الثلاثة التى ينالها منا الشتاء مايبرر إيجاد موقد لكل منزل . فان لياليا الشتوية تضطرنا إلى أن ينفرد كل منا بفراشه بعيدا عن سائر أعضاء الأسرة . ولو عنى أصحاب المنازل بتوفير المواقد فى منازلهم لما كلفهم هذا نفقات كبيرة . وهم بذلك يخدمون الاجتماع المصرى و يعملون لربط الأسرة .

ولسنا نعنى تبرير الحال القائمة فى كثير من العائلات حين نجد رب البيت يهجره الى القهوات والأندية والملاهى . ولكنا لانستطيع أن نتغافل عن قيمة الموقد فى الاجتماع. هذا الموقد الذى لايزال يجمع أبناء الريف عندنا .

و بعد ذلك نقول إن بيننا من الأزواج بل من الشبان العزب من ينظرون إلى البيت كأنه فندق أو مطعم . يخرجون مبكرين الى أعمالهم فاذا عادوا للغداء تناولوه فى عجلة وصمت . ثم انكفأوا الى الفراش للقيلولة . و بعد ذلك يسرعون الى الخروج حيث القهوة أو الملهى وإخوان الصفاء . و يعودون متأخرين الى البيت للنوم . فالبيت عندهم فندق للنوم ومطعم للطعام . والزوجة والأولاد لايتمتعون بالمؤانسة أو المسامرة التى هى من حقهم على الوالد . بل الوالد هنا يكاد ينسى واجباته نحو أبنائه بل هو ينتهى إلى أن يعتبرها "من شؤون الأم" ثم تتفاقم هذه الحال فيعتاد الزوج غشيان القهوة أو الملهى أو النادى كأنه لازمة لايمكن الاستغناء عنها و يعتاد الانفصال من الزوجة كأنه فى طبيعة الأشياء . ثم تنتج من ذلك نتائج تتفاقم وتسوء بمرور الزمن .

وأولها أن المزاملة بين الزوجين تنعدم و يصير لكل منهما أصدقاؤه . وهذا ضرر كبير فى ذاته . لأن الزوجة فى حاجة الى إرشاد الزوج الذى تعلم فى أغلب الحالات أكثر منها وعرف من الشؤون العامة والخاصة ما لم تعلم ، فمن واجبه كما من حقها أن تستنير بحديثه وأن تنمو معه نموا ذهنيا وثقافيا . وهو حين يفعل ذلك يأتنس بها كما يجد أن أولاده ينتفعون بهذا النمو فى تربيتهم التى يزيد حظ الأم فيها على حظ الأب . والزوجة المصرية التى يتركها الزوج والتى تقتصر معاشرته لها على المساكنة دون المزاملة جديرة بأن تتخلف عنه . ويزداد التخلف بمرور الزمن حتى تعود أغرب الغرباء عنه إذا تحدثت أو اشتركت معه فى مناقشة ، لها عقائد خاصة وعادات خاصة وأسلوب معين فى المعيشة لايتفق والصورة التى ارتسمت فى ذهنه من الأسرة فاذا وصلت الحال الى ذلك شعر الزوج بالانفصال الروحى بينه و بينها ، وهو عندئذ قد يقع فى مغريات تهدد كيان الأسرة وتشتت أفرادها . هذا الترك للبيت يؤذى الأولاد لأنهم يحرمون من النصيحة الأبوية ومن ميزات الثقافة والخبرة التى يجب أن يمتاز بها على الأم .

ويحسن بكل زوج أن ينظر فى نفسه : هل يرى مثل هذه الصورة تنطبق عليه؟ وأن يسأل نفسه هل هو يعيش فى منزل أم فى بيت ، وهل هو يعامل زوجته كأنها زميلته ، وهل هو يقصد الى تنويرها وتثقيفها بالكتاب والجريدة والمجلة والمرافقة الى الزيارات و إلى المتاحف والمسارح ؟

ولسنا ننكر أنه يشق أحيانا على الزوج أن يحمل زوجته على النمو الذهنى . لأنها إذا لم تكن قد حصلت على تربية ثقافية متوسطة فقد يصعب عليها فى كثير من الأحيان أن تساير زوجها أو تتبع إرشاداته . ولكن عليه ألا ييأس لأن اليأس هنا سيؤدى فى المستقبل الى الانفصال الروحى بينهما . وهو اذا ثابر على المجهود فان البذرة التى يزرعها سوف تبرز يوما الى الحياة وسوف يجد عندئذ فى زوجته زميلا بل صديقا يشتاق الى حديثه وملازمته .

فلكى نجعل منازلنا بيوتا نحبها ونؤثر الراحة فيها على القهوة أو الملاهى يجب أن نتخذ من زوجاتنا زميلات لنا وذلك بتربيتهن حتى يرتفعن الى مستوانا فنشترك معهن فى هموم وشؤون تربطنا . فاننا الآن قد نترك الزوجة لكى نتحدث إلى صديق فى القهوة عن السياسة الخارجية أو الداخلية . فلم لا نثقف زوجاتنا حتى نستطيع أن نعلمهن ونثيرهن فى هـذه الموضوعات فنأنس بحديثهن فيها ؟

يجب بعد ذلك أن نجعل البيت حاويا لكثير من المسليات التى تغرينا بالبقاء فيه . وهذه المسليات تختلف باختلاف القدرة المـالية . فان الأسرة الثرية تستطيع أن تشترى مائدة البلياردو التى تكلف نحو خمسين جنيها . ولكن الأسرة الفقيرة يمكن أن تقنع بصندوق النرد أو الشطرنج ، كما أن الكمان أو البيان أو العود أو غيرها من الأدوات الموسيقية يجب أن تكون سلوة سامية لأحد أعضاء الأسرة أو لهم جميعهم . ثم هناك هوايات مختلفة تغرى بالبقاء فى البيت مثل تربيـة الأشجار والنباتات الغريبة و إيجاد ملعب فى الحديقة . وهنـا يجب ألا نجهل قيمة الموقد التى شرحنا أثرها فى أوربا .

والزوج الراقى لا يمكنه أن يستغنى عن مكتبة . وهو يحسن اذا جعل من نفسه مستشارا فنيا يشير على زوجته وأولاده باختيار الكتب المفيدة . وصحيح أنه هنا يجد ركودا مؤلمـا من الزوجة التى لم تتعلم . ولكن عليه بالمثابرة ولابد أن يظهر للجهود أثره فى المستقبل . كما أن عليه من وقت لآخر أن يحمل أعضاء الأسرة على نزهة مفيدة إما الى متحف وإما إلى حديقة بعيدة . فان الفائدة هنا لا تقتصر على ما يعود على الصحة الجسمية من الحركة والتنزه ، بل هناك فوائد أخرى فى مقدمتها أن يكون الزوج بين أولاده يربيهم و يؤنسهم و يمتعهم بشخصه .

كذلك يجب إيجاد الأثاث المريح دون الأثاث المزخرف الذى يشيع فى بعض الأوساط عندنا . كما أنه يجب — إذا تيسر ذلك — تخصيص غرفة للجلوس . فان غرفـة الضيوف تعنى بها الزوجة عادة ، لأنها تحب أن تبقى ناصعة تفخر بأثاثها أمام الزائرين . ولذلك ينبغى أن تكون بكل بيت غرفة تعد للجلوس حيث يجتمع أعضاء الأسرة . وعدم وجود هـذه الغرفة قـد يكون سببا لكراهتهم للاجتماع . بل يجب أن تكون هـذه الغرفة خير ما فى المنزل جامعة لاسباب المسرة والراحة .